أثر حالة نفسية في المجتمع المصري

التفاؤل والتشاؤم أيهما خير وأنفع للحياة ؟

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

في النفس البشرية طبيعتان مختلفتان : طبيعة الإنسان المتفائل الضاحك المترقب خير الأمور وأسعدها ، وأحلاها ثمرة . وطبيعة الإنسان المتشائم العابس المنتظر شر الأمور وأشقاها وأمرها ثمرة .

وإمام الطبيعة الأولى في العصور الحديثة جان جاك روسو ، كان يحسن الظن بالكون والطبيعة والجنس الانساني ويعتقد فطرة الخير في البشر ، ويرى حل المسائل بالملاينة والمحبة والتصافي ، حتى أن خصمه الألد ڤولتير عند ما أراد تفنيد مذهبه ألف كتاب " كانديد " ورأى بطل هذا الكتاب أن "ليس في الإمكان أبدع مما كان" أو "كل شيء يسير في خير الطرائق في عالم هو خير العوالم " .

وكان ڤولتير ساخرا من رأي روسو يوعز إلى قرائه من طرف خفي أن الرضا والاستبشار هما سبب الكوارث التي تصيب جماعة المحسنين ظنونهم بالأشياء والأشخاص .

وعلى الرغم من سخرية ڤولتير من مذهب المتفائلين فقد كان للتفاؤل أنصار يؤيدونه ويبشرون به ويحثون الناس على اتخاذه مبدأ ويجدون فيه حجر الفلاسفة أو اكسير الحياة الذي يعيد الشباب بعد الشيخوخة ، ويملأ القلوب بالطرب والمرح بعد الغم والكدر ويجري ماء الحياة الناضرة في الأعواد الجافة الذاوية ويكسو المحزونين والحيارى أثوابا قشيبة من رونق الصبا .

وقد درج المتفائلون أتباع الأوپتمزم على أن أضدادهم المتطيرين بالسوء ليسوا سوى مرضى متبرمين نافرين ثائرين جاحدين ، وأن داءهم منهم وفيهم ، وأنهم مصابون في أنفسهم بأنفسهم وأن تبعة الشرور والآلام لاصقة بهم ملازمة لهم ، وأن الدنيا والكون والحظ والأقدار عند ظن الانسان بها ، فإن كان خيرا فخير وإن شرا فشر ، وإن هؤلاء المتطيرين بالسوء هم سبب ظلمة الحياة وهمومها وسواد ألوانها لنظرهم إليها بمنظار تنعكس أشعته القاتمة على أفئدتهم فلا يأخذون بأنصبتهم من الدنيا ولا يتركون غيرهم يأخذون ، وأن عبوس الدهر في وجوه القوم جزاء عبوسهم في وجهه ولو أنهم ضحكوا له لضحك لهم ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ولذا جعلوا شعارهم " اضحك يضحك لك العالم " ...

أما أنصار المذهب الآخر " البسيمزم " فكثيرة بين المفكرين والفلاسفة وبعض الشعراء قديما وحديثا. وفي العصور الأخيرة وقف فولتير كما قدمنا يذود عنه ويحث عليه ويراه أخلق بالرجل وأجدر بكرامته أن يكون حذرا سيء الظن بالدنيا . وخلفه على هـذا التراث أرتور شوبنهور المفكر الجرمانى، فشاد للتشاؤم صرحا عاليا فى كتابه "العالم إرادة" وجعل حضارة الانسانية ومدنية الدنيا القديمة والجديدة منـذ فجر التاريخ فى الهند وبابل ومصر واليونان والرومان، أطلالا وخرائب وبى فوق الأنقاض دنيا آلام وهموم وفناء بعد الفنون والريبة، وقد هدم المعتقدات والعواطف ونصب للمرأة مشنقة ومقصلة وأعد لهـا سيف ونطعا وقضى بقلمه البتار على أخيلة الشعراء وضرب بالمثل البهيجة والآمال العذبة عرض الأفق ووصفها بأنها مخدرات ومسكنات تعقبها أدواء وأوجاع أقسى من التى حاول الصرعى اتقاءها فكان لآراء هذا الفيلسوف أنصـار وأعداء، وزعم أنصاره أنه على حق وأنه نظر الى الدنيا نظرة الحكيم الفاحص ولم يتزلق الى مهاوى الضلال والخديعة ولم ينقد الى الأوهام جهلا وضعفا واكتفى بأن تمسك بأهداب الحقائق الراهنة الملموسة حتى ليجعل من أشخاص قرائه ومريديه شهود إثبات على صحة مذهبه .

فقال خصومه: إنه شاذ واضح الشذوذ لكل من لقيه أو تلقى عنه، وورث عن فولتير ابتسامته الساخرة المستهزئة وقد امتاز فولتير بهذه الابتسامة التى أثارت الألم والحسرة فى قلوب كثيرة لدلالتها على ما وراءها من الأحزان الدفينة وضياع الثقة فى مستقبل الانسانية .

وتلا هذين المفكرين المتشائمين فى أوروبا ثالث لها أحدث عهدا وإن يكن أقل صيتا وأخفت صوتا وهو ماكس نورداو النمسوى أصـلا الأندلسى موطنا (توفى منذ عشرين عاما أى فى سنة ١٩٢٢) فقد وضع كتابا عنوانه " التدهور Degenerescenco " بعد أن اتجه ثلاثين عاما إلى حقائق العلم الحديث فعكف على دراستها حتى اكتشف المبادئ التى أذاعها بعد أن أجاد إفراغهـا فى قوالب خلابة . فزعم أن آداب العصور الحديثة فى أوروبا الغربية آداب مريضة سقيمة وليدة عقول كليلة وأنظار خسئة حسيرة، وأنها نتيجة " إجهاض " المدنية العاجزة عن الاخصاب بعد أن بلغت سن اليأس (كذا) كذلك الفلسفة العصرية لا تخرج عن الاخيلة التى ولدتها أذهان مخمورة، وعدد فى كتابه هذا وفى كتاب " العجب الفائق والنقائض " أحداث الحيـاة التى أودت بالدول والشعوب التى ألقت للنساء الحبل على الغارب حتى خرت الفضيلة صرعى تحت أقدامهـا وانتقد نظم السياسة والاجتماع والاقتصاد فى كتابه الأخير " الأضاليل المتفق عليهـا فى الحضارة الحديثـة The Convertional lies in modern civilisation " وهذا الكتاب وإن لم يعتبر أظهر تصانيفه، إلا أنه أجرؤها وأقدرها على رفع الأقنعة عن كثير من أوجه الحياة؛ فزعم أن المظالم قد تراكمت حتى تغلبت فى المجتمع على النصفة، وأن الرحمة توارت وراء القسوة والمطامع

وأن الشرور قد نظمت تنظيما اجتماعيا وطرزت حواشيها ودعمت أركانها ، وأن التوازن قد اختلت عناصره ومقاييسه فأصبحت الحياة كالسفينة المخروقة تعجز راكبوها عن أن ينزحوا ما يتسرب اليها من الماء حتى مالت وثقلت وما تزال كذلك حتى يبتلعها اليم . ومن قبل هـذا الغرق المحتوم عملت الدوافع والعناصر عملها حتى نقص النسل وتضعضع وتلوثت الأخلاق والأعراض وفترت العزائم وانحلت الإرادات وأشرف المجتمع الأوروبى على ارو ب وصدق من قال إن من يقضي ساعات فى قراءة كتب هـذا الرجل فكأنه قضاها فى صحبة الشيطان أو فى سفرة قصيرة الى الجحيم .

غير أن الدافع القوى بڤولتير وشوبنهاور وماكس نورداو الى رفع علم التشاؤم فى العالم الغربى كان صوته الأول وصرخته المبكرة وأثره الفعال فى الشرق قبل الغرب ، بفارق واحد وهو أن هؤلاء الأوروبيين بنوا تشاؤمهم على حقائق العلم والتجاريب الانسانية فى عالم اختصمت فيه العناصر بعضها بعضا وتصادمت المصالح والأهواء وتناطحت جبابرة المادة واصطخبت مدويات الحروب وتعادلت القوى حينا وتخاذلت أحيانا . فرسموا بأقلامهم صورا منتزعة من الحياة الراهنة وسجلوا الواقعات المتواترة مستندين الى أصح المصادر وهى الخبرة والمشاهدة .

أما فى الشرق فكانت أرواح الأديان وعقائد القدرية والجبرية وتحكم الخطوط فى مقدرات البشر وانهيار المدنيات القديمة التى كانت قائمة على المظالم والجبروت والطغيان وانتشار المذلة والهوان فى المجتمعات البائدة . وليس هذا محل العجب بل التقاء الطائفتين فى نقطة واحدة ، واتجاه الأذهان اتجاها معينا بذاته على الرغم من اختلاف الأزمنة والأمكنة والأجواء .

فهذا أبو العلاء المعرى فى لزومياته ورسائله ، وهو من عرف أحوال المتقدمين وسيرهم وأخبارهم وبرع فى دراسة أحوالهم والإشراف على خفايا نفوسهم وفاق فى الإلمام بأمور المتأخرين والمعاصرين أهل زمنه فاجتمعت لديه الواقعات القديمة والصور الحديثة يحتج بها ويعتد لما يرد به عنيه فكان فى شعره ونثره وحكمته على يقين منها جميعا ومن أراد الاستشهاد من آثاره على تعمقه واستغراقه فى التشاؤم فقد يستنفد من المداد والورق بقدر ما استنفد المعرى نفسه فى تأليف كتبه ونظم دواوينه .

وما كان شغفه بشعر أبى الطيب المتنبى حتى تفرغ لشرحه وسماه معجز أحمد إلا لاستيلاء هـذا الروح نفسه على المتنبى فى كثير من شعره :

وما الدهر أهل أن تؤمل عنده   حياة وان يشتاق فيه الى النسل

وكذلك تأثر القرن الرابع الهجرى فقال أبو الحسين بن فارس : " الحمد لله على فساد الزمان وتغير نوع الإنسان " .

وكتب الهمذانى

" الناس لآدم وإن كان العهد قد تقادم وارتكبت الاضداد واختلط الميلاد ، لقد فسد الزمان ، ومتى كان صالحاً " أعلى عهد الرسالة ويوم الفتح ؟ قيل اسكتى يافلانه فقد ذهبت الأمانة ، ام فى الجاهلية ولبيد يقول :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم و بقيت فى خَلْفٍ كجلد الأجرب

أم قبل ذلك حين قيل :

بلاد بها كنا وكنا نحبها اذ الناس ناس والزمان زمان

أم قبل ذلك والراوى يقول :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مسود قبيح !

أم حين قالت الملائكة : " أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ؟ "

وما فسد الناس ولكن اطرد القياس ، ولا ظلمت الأيام ، انما امتد الاظلام . وهل يفسد الشىء إلا عن صلاح ويمسى المرء إلا عن صباح ؟ " انتهى .

وهذا كلام قديم يشف عن روح التشاؤم وسوء الظن بالحياة والضجر من الدنيا والتبرم بالإنسانية فى كل عهودها . ولو فتشت فى جوانح الأدب الفارسى لوجدت مصلح الدين سعدى الشيرازى فى بستانه وجلستانه أكثر غيظا وحنقا على الدنيا وسخرية منها واستخفافا بها ، غير أنه صاغ تشاؤمه وحنقه وغيظه فى صورة التهكم اللاذع والاحتقار الأليم ، وكذلك الجامى وحافظ والفردوسى ولا سيما فى آخر أيامه عند ما خابت آماله فى السلطان محمود الغزنوى الذى نظم له الشاعر ديوان شاهنامه . أما فى الغرب فقد وجد بعض فلاسفته المتشائمين منفذا ومخرجا فى الإلحاد والاستهتار ، وبعضهم فى اليأس من الحاضر والرجاء فى المستقبل بشرط تبديل الأحوال وتغيير النفوس والتبشير بعصر القوة والجبروت والانسان الفائق فأنتج الإلحاد والاستهتار والتحلل من القيود : الثورات الاشتراكية وحرب الطبقات . وأنتج الرجاء فى المستقبل عبادة القوة وتشييد هياكل السلطان المطلق والبطش العالمى ونسبة الحق للبأس وذويه وإن كانوا مبطلين .

وفى الشرق المستكين الساهر المتواكل كان التشاؤم سببا فى مضاعفة ضعفه واستقواء أدوائه واصطلاح العلل عليه فاستسلم وألقى سلاحه ، وانحنى أمام ما عتراه بحسبان أنه حظه المقدور فى الأزل ونصيبه المقسوم له منذ بداية الخلق .

وفى مصر يسود التفاؤل على طريقة طريفة نادرة . فالناس هنا مفطورون على الاستبشار بحكم طبيعة الأرض والماء والهواء . وهم مدفوعون الى السرور بفعل الخصوبة وتوافر الخيرات

على الأفق قبل أن تدهمهم الحوادث بالغلاء والشدة؛ فالسماء زرقاء صافية والشمس ود اء مشرقة والزرع أخضر بسام والسواقي سارة دائرة كدورة الكواكب والقناعة ضاربة طنابها وفلسفة الصبر ناشرة ألويتها .

فنشأ المصري ضحوكا بشوشا قؤولا للنكات، مسارعا للقهقهة في أشد المحن، شديد التعلق بالحاضر لا يعنيه المستقبل إلا في الندرى حتى يقول في أمثاله السائرة: "أحيني النهارده وأمتني بكرة" ومن آيات تفاؤله انشغاله عن الادخار والتدبير بالاسراف والتبذير وانصرافه إلى السماحة والكرم، وإحسانه الظن بالغد وبالدهر وتقلباته :

دع المقادير تجري في أعنتها   ولا تبيتن إلا خالي البال

ما بين غمضة عين وانتباهتها   يغير الله من حال إلى حال

وإن سهولة الرزق وتعاون الطبيعة مع المصري وضآلة ما يحتاج اليه في قوته وكسائه وفرشه وغطائه جعلت التفاؤل عقيدة لا عادة، وغريزة لا تقليدا. وهذه الحالة النفسية الملازمة لتكوينه وطبعه لو ثبت له ضررها واقتضت صلاحية شؤونه تغييرها لما استطاع إلى ذلك سبيلا . فهي خير له، خير لابد منه، يحسن به أن يعدلها أو يوفق بينها وبين منفعته بما يستطيع من بعد النظر والموعظة الحسنة وجليل الاعتبار ، كما فعل أهل الصين بعد تهدم السور العظيم لدى كان حجابا حاجزا بينهم وبين العالم ! ! . . . . . . ما

محمد لطفي جمعة